Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٣، خريف ١٤٣٦ هـ
صفحة ٤٩٣- ٥٠٧

إطلالة على الإسهامات اللغوية لأئمة أهل البيت عليهم السلام

محسن تيموري[١*]، محمد حسن معصومي[٢]

١. مدرس اللغة العربية في وزارة التربية والتعليم
٢. عضو الهيئة التعليمية بجامعة آزاد الإسلامية، فرع قم

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٦/٨ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/١٠/٤)

الملخّص

حظيت الدراسات اللغوية أو ما تطلق عليه «اللغويات» على اهتمام العلماء المختصين قديما وحديثا، نظراً لانطواء المادة اللغوية على أهم خواص الظاهرة اللسانية؛ ألا وهي التواصل والترابط بين أبناء البشر. فثمّة مؤلفات عديدة تم تدوينها في الآداب العربية وفي غيرها من الآداب تناولت شتّى جوانب اللغة وعالجت مختلف مناحيها وقلّبت وجوهها وأشكالها. أمّا الذي دفع الباحثين إلى الاشتغال على هذه الورقة فهو سؤال مفاده: هل ساهم أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا الحقل كما في غيرها من الحقول المعرفية والعلمية المعروفة في عصرهم؟ لا غرو أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا أصحاب اليد الطولى ـ كما يرى الشيعة وكما اعترف بذلك المختصون ـ في معارف الشريعة وما يتصل بها من علوم ومعارف أخرى؛ منها اللغويات، من نحو وبلاغة ومباحث لفظية و... على أنّ اشتغالهم على هذه العلوم الأخيرة لم تكن في أكثر الأحيان مقصودا بذاتها وإنما كانت اهتماما عرضياً لصلة المادة بمبادئ العقيدة والشّريعة، وذلك مثلاً لإيضاح رأي ديني أو بيان مقصد شرعي أو للرّد على زعم خاطئ أو لتصحيح انطباع فكري غير سليم. عموماً فإن المجالات اللغوية التي عرضوا لمعالجتها ـ حسب ما تمّ الاستقصاء فيها ـ فهي الفروق اللغوية، وشرح وإيضاح الألفاظ، وشرح مفردات القرآن، وتوليد المعنى أو إنتاج الدلالة اللغوية. فيما يتعلق بالمنهج فهو ـ حسب ما تتطلبه طبيعة مثل هذه الدراسات ـ منهج وصفي ـ تحليلى أمّا بالنسبة بالنتائج أو بالأحرى النتيجة التي توصلنا إليها، فهي أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قاموا بدور نشط في حقل اللغويات، بحيث أصبحت نتاجاتهم في هذا الحقل غنية ارتوى بمنهلها المختصون في العلوم اللغة قديماً وحديثاً. هذا ونرجو أن يكون هذا العمل المتواضع مساهماً في إثراء المكتبة الأدبية والدينية ولو بقدر ضئيل، والله ولي التوفيق.

الكلمات الرئيسة

أئمة أهل البيت عليهم السلام ، المادة اللغوية (المفردات- التراكيب)، الإبداع الفنّي.

---

* الكاتب المسؤول
Email: Teymoori.Mohsen@yahoo.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

لو راجعنا النصوص الروائية المأثورة عن الأئمة أهل البيت عليهم السلام ـ وهي لو تعلمون حافلة بعلوم وحقائق جمة وغنية بمعارف متنوعة ـ لو راجعناها لأدهشنا ما فيها من أساسيات لغوية طالما شغلت فكر اللغويين؛ من قبيل الكشف عن فروق لغوية سعياً لإزالة شبهات تكتنف قضايا عقدية، أو مقاصد شرعية، وكذلك شرح وإيضاح دلالات بعض الفاظ غامضة الدّلالة للغرض نفسه وأغراض أخرى متصلة بها، وأيضا تفسير مفردات قرآنية بعينها وإيضاحها لإعطاء صورة أوضح للمعنى تقربه إلى الأذهان، وأخيرا توليد معان جديدة من خلال ما يُطلق عليه في المصطلح المعاصر «تفجير اللغة» وهو يعني إضفاء دلالات جديدة على الألفاظ التي أصبحت بفعل الزمن ومتغيراته وتطوراته مستهلك المعنى باهتة الدلالة.

فهذه الركائز أو المحاور الأربعة، هي ما ركّزنا عليها وافترضنا أنها أغنت ـ من خلال ما جاء به أئمة أهل البيت عليهم السلام من بديع وجديد في اللغة ـ المكتبة اللغوية العربية؛ لدرجة ما فتئ اللاحقون من أهل الاختصاص يستثمرونها فيوظفونها في نتاجاتهم.

أمّا فيما يختصّ بالروايات نفسها، فإن مصنفي الموسوعات الروائية لم يكن من ضمن مهماتهم تبويب الروايات حسب ما تنطوي على الإبداعات اللغوية، لذلك لم تنتظم تلك الروايات منهج معين، بل جاءت مبعثرة في ثنايا الموسوعات المذكورة وهذا كان أحد دوافعنا لمراجعة تلك الجوانب اللغوية اللافتة في الروايات لكي نرتّبها تحت العناوين المذكورة ثمّ نتعهد درسها استعراضاً لها وتعريفاً بها.

على العموم تصدّى الباحثان في هذه المقالة ـ كما قلنا ـ مهمة استخراج ورصف ترتيب تلك الأساسيات اللغوية ومن ثمّ تحليلها ومناقشتها مستعيناً في ذلك بالمناهج العلمية والأدبية المتعمدة والمعروفة في مثل هذه الدراسات، ذلك حسب المستطاع وبقدر ما نتوفّر عليه من الزاد المعرفي.

أمّا الغاية التي تصبو إليها الدراسة هي التعريف بما أبدعه أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، كما ترمي إلى الإجابة عن سؤالين مفادهما:

١. هل كان هنالك اهتمام من جانب أهل البيت عليهم السلام بالمعارف اللغوية الأربعة (الفروق اللغوية، شرح الألفاظ، ايضاح مفردات قرآنية، وتوليد المعنى)؟

www.SID.ir

Archive of SID

٢. إلى أي مدى ساهم الأئمة عليهم السلام في إغناء البحث اللغوي؟ إن افترضنا يقتصر على المحاولة للإجابة عن هذين السؤالين الجوهريين.

وفيما يتعلق بخلفية البحث، فمن المعروف أنّ هنالك كثيراً من الأعمال اللغوية تمّ انتاجها أو تأليفها من قبل المختصين بعلم اللغة، خاصة في مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية في العصر العباسي وفترات تلته، حيث ظهر معظم النتاجات اللغوية في تلك الحقب التاريخية؛ منها الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، والخصائص لابن جني وفقه اللغة للثعالبي وبعض ما أُثر عن العالمين الجليلين جار الله الزمخشري وعبدالقاهر الجرجاني، وغيرها الكثير الكثير من مؤلفات السلف اللغوية التي كانت ولا تزال موضع اهتمام المختصين والمتعلمين ومحلّ استفادتهم لجدّتها وطلاوتها ورونقها. كما يمكن الإشارة بوجه خاص إلى مؤلفات بعض المعاصرين ومنهم الدكتور محمود البستاني ونختصّ بالذكر كتابه: «تاريخ الأدب في ضوء المنهج الإسلامي» حيث عالج بشكل متفرق بعض العناوين اللغوية التي صدرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام . ولعلّ أهمّ معطيات هذه المقالة مقارنة بسابقاتها تتمثل في أنها تفرقت لإسهامات لغوية ظلت مغمورة أو خافية على السابقين، كما نزعم أنّ هذا البحث عرض الموضوع عرضاً جديداً فأعاد انتاجه رصفاً وترتيباً وكشفاً.

ومن خلال مراجعتنا للنصوص الواردة نجد مأثورات كثيرة فيها ما يمكن مناقشتها في حقل اللغويات، شرط التزام الباحث في دراساتها بمنهج موضوعي محدّد، وشرط أن يحدّد غاية معينة لبحثه. أمّا فيما يتعلق بالمنهج المتّبع في هذه المقالة، فهو يقوم أولاً على استقراء المادة المتاحة واستقصاءها لتجميعها فرصفها، ثم مناقشتها على أساس منهج وصفي- تحليلي، حتى نستطيع من خلاله الخروج بنتائج تكشف عن مزايا نتاجات أئمة أهل البيت اللغوية، وذلك لعرضها على الدارسين اللغويين ممن يريدون الإلمام بجديد الإبداع والاستزادة منه في سياق إثراء الحقل اللغوي الذي يعدّ أحد أهم الحقول العلوم اللسانية.

أما العناوين التي نتناولها في هذه المعالجة اللغوية فهي بما يلي:

الفروق اللغوية

ناقش العلماء قديماً وحديثاً موضوع الفروق اللغوية التي تتصل إلى حدّ بعيد بموضوع «الترادف» في اللغة العربية الذي «هو توالى الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد» (الشريف الجرجاني، ١٩٨٣م: ١٧)؛ فهنالك من اللغويين من أقرّ بوجود الترادف في اللغة

www.SID.ir

Archive of SID

وهناك من أنكر ذلك، وقد شفع كل فريق مدّعاه بما لديه من الحجج والبراهين. على أنّ الاعتقاد السائد أو المشهور لدى اللغويين من أهل البحث هو عدم وجود الترادف في النصوص الرّاقية على الأقلّ.

وفيما يتعلق بموضوعنا هذا، بين أيدينا روايات نقلت عن أئمة أهل البيت، أوضحت بعض الفروق اللغوية لرفع التباس مفاهيم بعينها أو دفع غموضها. وفي هذه العجالة نستعرض بعض إسهاماتهم في هذا الحقل وهي ـ كما يقولون ـ غيض من فيضهم:

الفرق بين «المودّة» و«المحبة»

المودّة مصدر لفعل وَدَّ يَوُدُّ؛ تقول: وَدِدْتُ لو تفعل ذاك، ووَدِدْتُ لو أنّك تفعل ذاك، أَوَدُّ وَدًّا ووُدًّا ووَدادَةً، ووِداداً أي تمنَّيت (الجوهري، ١٩٩٠م: ج٢، ٢٧١). والمحبّة مصدر لفعل حَبَّ يَحِبُّ، وحَبَّه يَحِبُّه بالكسر فهو محبوب. وتقول: ما كنتَ حَبيباً، ولقد حَبِبْتَ بالكسر، أي صرت حَبيباً (الجوهري، ١٩٩٠م: ج١، ١١٠).

وعلى رأي أبي هلال العسكري: «المحبة لا تقع إلا على المستقبل، ولكن المودة قد تكون بمعنى التمني الذي قد يقع على الماضي والمستقبل؛ كقولك: أود لو قدم زيد، بمعنى: أتمنى قدومه، ولا يجوز أحب لو قدم زيد» (العسكري، ١٩٨٥م: رقم ٥٥٣).

وقال عليّ عليه السلام موضحاً الفرق بين هاتين الكلمتين: «إنّ المودة يُعبّر عنها اللِّسان، وعَنِ المحبة العينان» (غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة: ٩٥). للتحقق من أصالة ما بيّنه الإمام عليه السلام وللتأكيد من سلامة رؤيته، يمكننا اعتماد منهجين علميين هما: المنهج اللغوي والمنهج النفسي. أمّا المنهج النفسي فنعتمده من خلال الواقع النفسي الذي يعيشه الأفراد والمجتمعات، إذ العين هي منشأ المحبّة ومصدرها لديهم. فقد قالوا قديماً: «بَعيدٌ عَنِ العَين بَعيدٌ عَنِ القَلب» ممّا يدلّ أن المحبة تتلاشى إلى حدّ كثير لدى بعد الحبيب، وقالوا أيضا: «لأجل عَين ألفُ عَين تُكرَم».

واللافت في ما قاله الإمام أنّه عليه السلام كشف عمّا هو واقع في السلوك الحركي الإنساني، وما يعكسه واقع التجربة التي يعيشه الإنسان، فلا يتضمن كلامه ـ إذن ـ حكماً إرشاداً معيناً، وبتعبير آخر لا يوصى في هذا المقام بلزوم المحبة أو المودة أو عدم لزومهما بل ليس بصدد ذلك وإنما يريد تبيين الفرق بينهما، فمنهجه في التعريف ـ هنا ـ منهج علمي بحت.

www.SID.ir

Archive of SID

الفرق بين «الشحّ» و«البخل»

الشُّحُّ والشَّحُّ البُخْلُ والضم أعلى وقيل هو البخل مع حِرْصٍ وفي الحديث إياكم والشُّحَّ الشُّحُّ أشدُّ البخل وهو أبلغ في المنع من البخل وقيل البخل في أفراد الأُمور وآحادها والشح عام وقيل البخل بالمال والشح بالمال والمعروف (ابن منظور، ١٩٨٧م: ج٢، ٤٩٥).

في الكشف عن هذا الفرق، ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، وذلك حين خاطب أحد أصحابه بقوله: «أتدري من الشحيح ؟ قال: هو البخيل. فقال: الشحيح أشد من البخيل، إن البخيل يبخل بما في يديه، وإن الشحيح يَشحُّ بما في أيدي الناس وعلى ما في يديه، حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يشبع ولا يقنع بما رزقه الله تعالى» (الصدوق، ١٤١٨ق: ٢٤٥).

ولا يخلو من الفائدة القول بأنّ الإيقاع الصوتيّ للفظة «الشحيح» يدلّ هو الآخر على أنّ الحالة المرضية لديه أشدّ وأمرّ من الحالة نفسها لدى «البخيل»، وهذه الدلالة نستوحيها من خاصية حرف «الحاء» وتكرارها في لفظة «الشحيح» دون «البخيل»، فحرف «الحاء» كما يقول أهل الفن: صوت حلقي احتكاكي مهموس، وعند النطق به يضيق المجرى الهوائي في الفراغ الحلقي بحيث يحدث مرور الهواء احتكاكاً، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به.

الفرق بين «الإسلام» و«الإيمان»

جاء في الحديث أنّ أحدهم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان، أهما مختلفان؟ فقال: «إن الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان؛ فقلت: فصفهما لي، فقال: الإسلام، شهادة أن لا إله إلا الله، والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهدى، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام، وما ظهر من العمل به. والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة إن الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر، والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن، وإن اجتمعا في القول» (المجلسي، ١٤٠٣ق: ج٦٥، ٢٤٨).

لتوثيق صحة هذا الفرق والتأكيد منه أكثر، يمكننا الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات/ ١٤).

www.SID.ir

Archive of SID

الفرق بين «الرسول» و«النبيّ» و«الإمام»

الفرق بين النبي والرسول: قيل: لا فرق بينهما، وقيل: الرسول أخص من النبي لأنّ كل رسول نبي من غير عكس. وقيل: الرسول الذي معه كتاب الأنبياء، والنبي الذي ينبئ عن الله وإن لم يكن معه كتاب؛ فأمّا الإمام الذي يُؤتَمّ به أي يقتدي به (العسكري، ١٩٨٥م: رقم ٢١٣٨).

هذه المفاهيم الثلاثة هي من المفاهيم الدينية الأساسية التي يجدر شرحها وإيضاحها لإزالة اللبس عنها، لذلك بيّن الأئمة هذا الفرق. عن إسماعيل بن مرّار قال: «كتب الحسن بن العباس بن المعروف إلى الرضا عليه السلام ـ جعلت فداك ـ أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبي والإمام؟ قال: فكتب أو قال: الفرق بين الرسول والنبي والإمام هو أن الرسول الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبي ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع الكلام، والإمام هو الذي يسمع الكلام، ولا يرى الشخص» (الكليني، ١٤١٣ق: ج١، ١٧٧).

عموماً يحدّد الإمام عليه السلام مكانة كلّ واحد من هذه الشخصيات الثلاثة دفعاً لأي لبس يوجب الخلط بين مفاهيمها، إذ كثير من الخلافات الفكرية داخل الخطاب الديني ينجم عن عدم التفكيك بين دلالات الألفاظ وعدم التفريق بين معانيها، فإيضاح هذه الدلالات والمعاني من خلال الإشارة إلى الفروق الموجودة بينها ضرورة ملحة، خاصة فيما يتعلق بالمفاهيم ذات الحساسية البالغة في الفكر الديني.

الفرق بين «الفضل» و«العلم»

هاتان اللفظتان من الألفاظ الشائعة الاستعمال بل كثيرة التداول خاصة في الأوساط الثقافية والدينية، فقد يقال أن فلانا عالم جليل أو فاضل نحرير، لكن ما حقيقة المعنى لكل منهما؟ إيضاحاً لهذه الحقيقة وردت رواية تقول: إنّ الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد، قال: فإذا جماعة قد أحاطوا برجل، فقال: ما هذا؟ فقيل: علامة، فقال: وما العلامة؟ فقالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة وما خلاهنّ فهو فضل» (المجلسي، ١٤٠٣ق: ج٦٩، ٤٠٧).

إنّ اتخاذ مثل هذه المواقف من أصحاب الشعر والأنساب والتاريخ، خاصة في ذاك الظرف التاريخي قد يعود إلى أسباب سياسية معينة ففي تلك الفترة التي لم تكن شجرة الإسلام

www.SID.ir

Archive of SID

تغلظ ولم تستو على سوقها بعد، ظهر أناس حاولوا عمداً منهم أو جهلاً نشر بعض التوجهات القديمة من خلال إحياء ثقافتها والاهتمام بها، وكان مثل هذه المحاولات تأتي ـ بطبيعة الحال ـ على حساب تعاليم الدين الجديد ويُضعف بالتالي المفاهيم التي سعى هذا الدين إلى ترسيخها في النفوس والأذهان.

شرح الألفاظ وتفسيرها

شرح أئمة أهل البيت بعض الألفاظ فأوضحوا بعض دلالاتها وذلك في سياق طرح ومناقشة قضايا عقائدية عرضوا لها في مناسبات، فمنها على سبيل المثال ولا الحصر:

حُسن الخلق

فيما يخصّ هذا المفهوم الذي هو من أكثر المفاهيم الإسلامية شيوعاً، روي عن ابن محبوب أنّ بعضهم قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام ما حد حسن الخلق؟ قال: تلين جانبك، وتطيب كلامك، وتلقى أخاك بالبشر» (الصدوق، ١٤١٣ق: ٢٥٣).

إنّ لفظة «حسن الخلق» من الألفاظ التي تتنوع الانطباعات عنها نظراً لقابليتها للاتساع الدلالي، إلّا أنّ أهم معانيها هو ما جلّاها الإمام عليه السلام وهو لزوم المواجهة اللطيفة اللينة، وتوجيه الكلام الناعم والطيب إلى الناس، ومواجهة الآخرين بوجه منبسط بشوش؛ فالمؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه ـ كما ورد في الحديث ـ.

وثمة لطيفة في شرح هذه اللفظة وهي أنّ «لين الجانب» حالة انفعالية، بينما مواجهة الآخرين بالبشر والانبساط حالة فاعلة، أمّا الكلام الطيب فهو يجمع بين لين الجانب واللقاء المرن أي بين كلتا الحالتين.

الله أكبر

بخصوص لفظة «الله أاكبر» هناك ما روي عن أبي عبدالله عليه الاسلام أنّه قال لرجل عندما قال: «الله أكبر»: «الله أكبر من أي شيء؟ فقال: من كل شيء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: حدّدته، فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: قل: الله أكبر من أن يوصف» (الريشهري، ١٣٧٥هـ: ج٣، ١٣٣).

يتصل هذا التعبير بالمبادئ العقائدية وتحديدا بمبدأ التوحيد، لذلك يأتي شرحه وتفسيره في نفس السياق، تصحيحاً لانطباع خاطئ قد يتمكن في ذهن المتلقي الذي لا يملك تصوراً سليماً عنه. أما نفسياً فمثل هذا التوجيه يقتضي من المتلقي أن يفتح وعيه على

www.SID.ir

Archive of SID

المفردات والمفاهيم الدينية الجوهرية حتى يعي تماماً دلالات ما يتفوه به من الألفاظ ويدرك مغزى ما يقولون له.

العربية

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر يوم فتح مكة، ثم قال: أيها الناس إن الله تبارك وتعالى قد ذهب عنكم بنخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنكم من آدم وآدم من طين، وخير عباد الله عنده أتقاهم. إنّ العربية ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله فلم يبلغه رضوان الله حسبه، ألا إنّ كلّ دم كان في الجاهلية أو إحنة، فهو تحت قدمي هاتين إلى يوم القيامة» (العياشي، ١٣٥٥ق: ج١، ٤٣).

لتفسير لفظة «العربية» وجه اجتماعي، أوضحه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليصلح من خلال ذلك فكرة خاطئة ترسبت في بعض الأذهان، ألا وهي الفكرة الطائفية والفئوية التي قد نشأ بسببها كثير من نزاعات اجتماعية؛ فقد كان كثير من العرب يشعرون بالانتماء إليها رغم دخولهم الإسلام لأنّ هذا الشعور كان متغلغلاً في أغوار نفوسهم بفعل العصبيات القديمة.

فإيضاح مفهوم «العربية» يأخذ شكل الرسالة الاجتماعية التي تصدها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورعاها باعتباره رحمة للعالمين. وقد تتمثل هذه الرحمة هنا في إنقاذ الفكر الاجتماعي من التورط في هوّة تصورات مغلوطة تضر بكيانه وتأتي على حساب نزاهته.

الحمية

قال الإمام الرضا عليه السلام : «ليس الحمية من الشيء تركه، إنما الحمية من الشيء الاقلال منه» (عطاردي، ١٤٠٦ق: ج٣، ٤٧٠).

هنالك من يتصور أن الحمية هي التخلص من أمر تعوّد عليه؛ مثلما يطعمه من مأكول أو مشروب، وقد استحوذ عليهم هذا التصور فعلاً وتمكّن فيهم، لذلك يبادر الإمام ـ من منطلق مسؤليته ـ إلى قلب الفكر الخاطئ لدى هؤلاء، فيعرّف غير باخل مغزى هذا المفهوم لمن يريد أن يعرف وجه الحقيقة فيه.

الفتى

قد يستند الإمام عليه السلام أحيانا في تفسيره للفظة ما إلى القرآن الكريم باعتباره المرجع الأساس في فهم اللغة والتعامل معها. من نماذج ذلك ما نلحظه في ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه

www.SID.ir

Archive of SID

قال لسليمان بن جعفر الهذلي : «يا سليمان مَن الفتى؟ قال: قلت: جعلت فداك الفتى عندنا الشاب، قال لي: أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولا فسماهم الله فتية بإيمانهم! يا سليمان من آمن بالله واتّقى فهو الفتى». وعنه عليه السلام في رواية أخرى أنّه قال لرجل: «ما الفتى عندكم؟ فقال له: الشاب، فقال: لا، الفتى، المؤمن إنّ أصحاب الكهف كانوا شيوخا فسماهم الله عز وجل فتية بإيمانهم» (الريشهري، ١٣٧٥هـ: ج٥، ٤).

إنّ القرآن الكريم ـ كما أشرنا ـ يعدّ أهمّ معيار في الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية، لذلك اعتمد الإمام القرآن في تعريفه للفظة «الفتى» باعتبار أنّ الحجة القرآنية، حجة مقبولة معتمدة لا تشوبها أي شائبة ولا يعتورها أي شكوك. وإذا كان هنالك خلاف فإنّه يعود إلى تأويلات العلماء واجتهاداتهم.

شرح مفردات القرآن

لأئمة أهل البيت عليهم السلام باع طويل في «شرح المفردات القرآن» فالموسوعات الروائية تحفل بشروح دقيقة لتلك المفردات. لا شكّ في أنّ النص القرآني باعتباره أفضل نص عرفته اللغة العربية يتطلب شرحاً وتوضيحاً لا في الآيات فحسب، وإنّما في المفرادات، حيث يلف بعض هذه المفردات غموض، يحمل الإمام ـ وهو مفسر القرآن ومؤوّله ـ أن يوضح ما أبهم أو يشرح ما غَمُض من التراكيب والمفردات. وأمّا التوضيحات والشروح والتأويلات تأتي عادةً بعد أن يطرح سائل ما أبهم عليه من الألفاظ، فيقوم الإمام بوظيفته ويطلعه على المعنى وقد يكون الشرح والتوضيح من طرف الإمام ابتداءً، إذ يتحدث في مجلس من المجالس عن الألفاظ والمفردات وكذلك الآيات مفسراً إيّاها للحاضرين.

وهذا إسهام له قيمة أدبية ودينية كبرى، لم نكد نستغني عنه طالما تقصر عقولنا عن فهم جميع ما ورد في القرآن من المفاهيم. وفي هذه العجالة نورد طرفاً من هذه الشروح:

الصبر

في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ (البقرة/ ٤٥)

روي عن أبي الحسن عليه السلام : استعينوا بالصبر والصلاة، يعني بالصبر: الصوم (الصدوق، ١٤١٨ق: ٢٠٧).

www.SID.ir

Archive of SID

الأمانة

في قوله تعالى: ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ ...﴾ (الأحزاب/ ٧٢)

قال الرّضا عليه السلام: «الأمانة، الولاية ومن أدّاها بغير حق فقد كفر» (الصدوق، ١٤٠٥ق: ٢٠٩).

ألدّ

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة/ ٢٠٤)

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «اللدّ، الخصومة» (المجلسي، ١٤٠٣ق: ج٩، ١٩٠).

خائنة الأعين

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ (الغافر/ ١٩)

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الآية، فقال: «ألم تر الرجل ينظر إلى الشيء وكأنّه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين» (الصدوق، ١٤١٨ق: ١٤٧).

الصّمد

في قوله تعالى: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ (التوحيد/ ٢)

عن محمد بن علي، عن علي بن الحسين، عن حسين بن علي عليه السلام: الصمد، الذي لا جوف له، والصمد الذي قد انتهى سؤدده، والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد الذي لاينام، والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يَزال (المجلسي، ١٤٠٣ق: ج٣، ٢٢٣).

العدل والإحسان

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل/ ٩٠)

قال الإمام عليّ عليه السلام: «العدل الإنصاف، والإحسان التفضل. الإنصاف بأن ينصف الإنسان فيما له أو عليه والتفضل بأن يتفضل الإنسان على سائر الناس زيادة على استحقاقهم» (الحكمة: ٢٣١).

الصفح الجميل

في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥)

قال عليّ بن الحسين عليه السلام في الآية تعني: «العفو من غير عتاب» (الصدوق، ١٤٠٠ق: ٢٧٦).

www.SID.ir

Archive of SID

توليد المعنى (إنتاج الدلالة)

لقد تعامل أئمة أهل البيت عليهم السلام مع بعض الألفاظ والتراكيب اللغوية تعاملاً مختلفاً، حيث وسَّعوا دلالاتها عبر تقديم تعريفات جديدة عنها، أو عن طريق وضعها في سياقات غير مألوفة. هذه العملية يطلق أحياناً عليها في مصطلح المعاصرين «تفجير اللغة»، يقول أحد النّقاد: «... ذلك لأنّ كلّ لفظة من ألفاظ اللغة لها معنى معجمياً هو تاريخها الطويل، هو الجانب العامّ منها، وعندما يعمد الشاعر إلى التعبير عن تفرّده، وعن خصوصية رؤيته فإنّه لا يجد إمامه إلّا تلك ألفاظ بمعانيها المعجمة التي أبلاها فرط الاستعمال. إن تلك اللغة تحاصره، وهو لا يستطيع أن يتجاوزها أو ينفكّ عنها، عند ذلك يداورها مداورة فنية ويلجأ إلى وسائل شتّى لإغنائها» (الدقاق، ١٤١٣ق: ١٤٩-١٥٠). ويُعد كتاب «نهج البلاغة» أحد أهمّ المصادر الدينية التي نلحظ فيه تفجيراً واسعاً للألفاظ والتراكيب التي أبلاها فرط الاستعمال، حيث راح الإمام عليّ عليه السلام ينفث فيها روحاً جديدةً وجعلها في صورة غير نمطية وكأنّها لجدّتها تطرق سمع المخاطب لأوّل مرّة. وهكذا أزال عن تلك الألفاظ صدأها وأخرجها في صورة برّاقة جلية تبهر العيون وتوسّع الأذهان.

هنا نسجّل مجموعة من المفردات والألفاظ التي استلّ الإمام منها دلالات جديدة، مولّدا فيها معنى مختلفاً لم يعهده المخاطب:

الاستغفار

أورد الشريف الرضي في نهج البلاغة، أنّ أحدهم قال بحضرة الإمام عليّ عليه السلام: «استغفر الله» فقال الإمام عليه السلام له: «ثكلتك أمك أ تدري ما حد الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبدا، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى يلقى الله أملس، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت والمعاصي فتذيبه بالأَحزان حتَى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله» (الحكمة: ٤١٧).

لا شكّ أنّ هنالك ألفاظ تحتاج إلى إيضاح فحواها والكشف عن دلالاتها الكامنة وراء ظاهرها الذي يبدو بسيط الدّلالة سهل المعنى؛ منها لفظة «الاستغفار» التي تكررها كثير من الألسن من دون أن تعرف دلالاتها المعمّقة، فيأتي الإمام عليه السلام فيكشف عن تلك الدلالات بل يعطي للفظة معان جديدة لم يلتفت إليها أحد، وبذلك يغني المعجم اللغوي ويثريه.

www.SID.ir

Archive of SID

لا حول ولا قوّة إلّا بالله

لعلّ من أجلّ التعريفات التي قدّمت لهذا التركيب اللفظي الدينيّ، ما قاله الإمام عليّ عليه السلام حينما سئل عن معناها، فأجاب قائلا: «إنَا لا نملك مع اللّه شيئاً، ولا نملك إلا ما ملّكنا، فمتى ملّكنا ما هو أملك به منّا كلّفنا، ومتى أخذه منّا وضع تكليفه عنّا» (الحكمة: ٣٩٦).

من الملاحظ أنّ العبارة مع إيجازها وقلّة ألفاظها، مكثفة الدلالة إذ تنطوي على حكمة بالغة تكشف عن أحد أهمّ التراكيب العقائدية التي يرددها المسلمون كثيراً، شأنها شأن تعبير «الله أكبر» من دون أن ينتبهوا لمعانيها العميقة الكامنة وراء اللفظة أو التركيب. ولا تفوتنا الإشارة في هذا المقام إلى الجمالية البيانية التي صاغ الإمام عليه السلام الفكرة بالاستعانة منها.

الغنى والفقر

قال عليّ عليه السلام في حكمة له: «الغنى والفقر بعد العرض على الله» (الحكمة: ٤٥٢)

إنّ التعريف الجديد لكلّ لفظة معروفة، يخرجها عن وجهها البالي ويظهرها في مظهر جديد يبعث على الدهشة والعجب، وهذا ما نلاحظه في لفظتي «الفقر» و«الغنى» حيث أنتج الإمام لهما دلالات روحية وثقافية جديدة. فالتصور الموجود عنهما تصور مبسط ناجم ـ عادة ـ عن ضيق الفكر وقصر النظر وعدم الالتفات إلى دلالات روحية تمكن وراء «الفقر» و«الغنى»؛ فمن المعروف لديهم هو أن من لا يملك مالاً فهو فقير أو من يكدّس ذهباً وفضةً وما شاكلها من مقتنيات الدنيا فهو هو أغنى الأغنياء.

أمّا الإمام وانطلاقاً من رؤيته العرفانية المتعالية، فلا يرى في اللفظتين هاتين ما يراه الآخرون، أمّا وجه توليد المعنى هنا فيتمثل ـ كما قلنا ـ في طريقة النظر إلى الدّنيا وإلى غيرها من الظواهر؛ طريقة تتسم بالنزاهة والإيمان بالمثل العليا. فقد أخذ الإمام عليه السلام واقع اللغة مبدأً لتعليله، حيث إنّ الإنسان المتورط في حبائل الدنيا الدنية لا يتشبع منها مهما جمع وكدّس وقد يجمع من المال دونها حاجة فعلية إليه، إذن فهو فقير طالما يشعر بالحاجة. لأنّ الفقر لغة هو الحاجة، أمّا الغنى فهو يقابل الفقر، إذ هنالك من أصحاب الرشد والإيمان من لا يملك من حطام الدنيا شيئا، ومع ذلك لا يُحس بحاجة إلى شيء، وكأنّما هو أغنى أهل الدنيا، ومن هنا يجد توليد المعنى مصداقيتة وتخرج اللفظة من شرنقة الركود.

www.SID.ir

Archive of SID

العقل والجهل

قال الإمام عليّ عليه السلام في مقام آخر: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل» (الحكمة: ٥٦)

يقول الناقد والأديب إيليا حاوي موضحاً الدلالات العميقة لهذه الحكمة في سياق تحليل له عنها: «الغنى هنا بمعنى السعادة والنجاح، والمرء يسعد بعقله ويشقى به، فمن أحسن التفكير استقامت سيرته وأعماله وقدّر الأشياء أقدارها الحقيقية، ولم تغرر به ولا تتعاظم عليه، أمّا إذا كان جاهلاً، فإنّه فقير، كأنّه يملك مادّة للسعادة بل يكون تاعساً واهما تقوى عليه المادة وهو لا يقوى عليها» (الحاوي، ١٩٧٩م: ج٢، ١٢١).

أمّا من الوجهة الأسلوبية الكلامية، فإنّ هذا التعبير مع كلّ إيجازه ينطوي على دلالات فكرية وإنسانية معمقة قد لا توفي بحقها إلّا مقالة مستقلة. ويصدق عليه حقّاً بأنّه خير كلام في هذا الشأن.

الخير

قال أمير المؤمنين عليه السلام موسّعاً معاني لفظة «الخير» ودلالاته بقوله: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكنّ الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن تباهي الناس بعبادة ربّك؛ فإن أحسنتَ حمدتَ الله، وإن أسأتَ استغفرتَ الله ولا خير في الدنيا لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة، ورجل يسارع في الخيرات» (الحكمة: ٩٤).

وقر ظنّ في أخلاد كثيرين أن «الخير» هو ما ينحصر في ما يتمتع به الناس من مال أو ولد أو ضياع وما شابه ذلك من مظاهر الدنيا وملذاتها، على أنّ الإمام يكسر هذا المألوف الفكريّ أو بالأحرى هذا التصور الخاطئ، وذلك من خلال إعطاء مفهوم «الخير» معان روحية نابعة من تعاليم القرآن ودستور الإسلام، فيوسّع من خلالها دائرة المعنى لهذا المفهوم.

يُذكَر أن هذا التوسيع لمعنى «الخير» أو هذا التفجير المعنوي ـ حسب مصطلح المعاصرين ـ لا تنجم عن سليقة فردية أو مزاج آحادي أو حسّ شخصي، وإنّما هي تأتي على أساس ما أثبتته التجارب التي عاشها المؤمنون وما لمسه أهل التقوى والمغفرة طوال حياتهم الروحية، إذ الخيرات كلّها ـ كما أكّد الإمام عليه السلام ـ تتمثل في التحليّ بالحلم، ولزوم الطاعة وكثرة الاستغفار والإمكان في العبادة والمباهاة في عبودية الربّ ـ جلّ وعلا ـ.

www.SID.ir

Archive of SID

النتائج

نستنتج من كل ما طرحناه في هذه المقالة من القضايا اللغوية، أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قاموا بدور نشط وفعّال في حقل اللغويات كشفاً وشرحاً وتصحيحاً، على أن هذا النشاط لم يكن سوى لتوضيح قضية شرعية، أو للردّ عن تصور عقائدي خاطئ، أو للإجابة عن سؤال وجّهه أحدهم إليهم حول موضوع لغوي. وكانوا في ذلك كلّه يستندون إمّا إلى القرآن وإمّا إلى الحديث النبويّ وكما استندوا في هذا السياق إلى المنطق القائم على الواقع الاجتماعي والنفسي.

وبشكل عام جاءت مداخلاتهم الذكية في هذا المضمار لتكريس فهم صحيح ودقيق عن اللغة العربية التي هي الأساس لفهم النصّ الديني، أمّا نتاجاتهم في هذا الحقل في هذا الحقل فكانت ثرية حافلة استقى منها اللغويون وشربوا من مَعينها بعد أن اعترفوا بعمقها وغنائها، كما عالجوا على أساسها بعض ما استعصت عليهم من الإبهامات أو التعقيدات اللغوية المتعلقة بالعناوين الأربعة التي طرحناها في نصّ المقالة وهي: (الفروق اللغوية، شرح الألفاظ، شرح مفردات القرآن، توليد المعنى).

أمّا التوصية التي يقدّمها الباحثان هنا فهي ضرورة مراجعة التراث الشيعي الحافل المتمثل في الروايات ذات الطابع اللغوي، لاستخراج المادة اللغوية منها وطرحها من جديد ومناقشها وتحليلها من خلال استخدام المناهج والطرائق التحليلة اللغوية المقصودة التي توصّل إليها الباحثون اللغويون وعلماء اللسانيات في العصر المعاصر.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

نهج البلاغة

١. الآمدي، عبد الواحد بن محمد (١٣٤٩ق). غرر الحكم ودرر الكلم. صيدا: مطبعة العرفان.

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٨٨م). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ.

٣. الجوهري، إسماعيل بن حماد (١٩٩٠م). الصحاح في اللغة. ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين.

٤. حاوي، إيليا (١٩٧٩م). في النقد والأدب. ط ٤، بيروت: مشورات دار الكتاب اللبنانيّ.

٥. الدقاق، عمر (١٤١٣ق). الأدب العربي الحديث. دمشق: منشورات وزارة التربية السورية.

٦. الريشهري، محمد (١٣٧٥هـ). ميزان الحكمة. ط ٣، قم: دار الحديث.

٧. الشريف الجرجاني، علي بن محمد (١٩٨٣م). التعريفات. بيروت: دار الكتب العلمية.

٨. عطاردي، الشيخ عزيز الله (١٤٠٦ق). مسند الإمام الرضا عليه السلام. مشهد: مؤسسة طبع ونشر آستان قدس الرضوي.

٩. الصدوق، محمد بن علي (١٤٠٠ق). أمالي الصدوق. ط ٥. بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي.

١٠. ـــــــــــــــ (١٤٠٥ق). عيون الأخبار. ط ٢. طهران: نشر رضا مشهدي.

١١. ـــــــــــــــ (١٤١٨ق). معاني الأخبار. ط ٤. قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

١٢. العسكري، أبو هلال (١٩٨٥م). الفروق اللغوية. القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.

١٣. العياشي، محمد بن مسعود (١٣٥٥هـ). تفسير العياشي. طهران: مكتبة العلمية الإسلامية.

١٤. الكليني، محمد بن يعقوب (١٤١٣ق). أصول الكافي. بيروت: منشورات دار الأضواء.

١٥. المجلسي، محمد باقر (١٤٠٣ق). بحار الأنوار. ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

www.SID.ir